

علم اللغة الحديث

أ. ناوي نبيلة

جامعة تلمسان

مقدمة :

إن نشأة أي علم من العلوم الإنسانية هي النظر في موضوعات وأصول قديمة بمناهج حديثة . واللغة واقع ملازم للإنسان ، فقد أعطاهما نصيبه من البحث منذ القديم وخص لها علم خاص بها . أسماه علم اللغة وقد أصبح اليوم مثله مثل فروع العلوم والمعرفة الإنسانية ، عبارة عن نتاج لماضيه و مادة لمستقبله أما الحاضر يعرفه بأنه الدراسة العلمية للغة البشرية دراسة موضوعية بعيدة عن النزعة التعليمية المعيارية والتاريخية .

و الإشكال الذي يطرح نفسه هو : كيف نشأ علم اللغة ؟ وما هي المناهج التي اتخذها هذا العلم في التعامل مع اللغة ؟ وهل هذه المناهج باستطاعتها التعامل مع الواقع اللغوي ؟

1) - نشأة علم اللغة :

الدراسات اللغوية القديمة كانت جزء لا يتجزأ من التفكير الفلسفي القديم . فقبل ظهور علم اللغة كانت هناك فلسفة اللغة التي هي : ”بحث فيما قبل اللغة ، أو هي بحث عن أولها ونشأتها وعلاقتها الصحيحة بالإنسان والوجود بجميع ما فيه من موجودات ودورها الاجتماعي ، والعلمي والحضاري ، ومحاولة توضيح كل ذلك وتفسيره .

هذه الدراسات اللغوية القديمة تختلط إلى حد كبير جدا بالنظريات المنطقية والميتافيزيقية .

حيث كان أفلاطون أول الفلاسفة القدماء الذي قدم أعمال متخصصة في مجال فلسفة اللغة ، وكان عمله له خصائص الأسلوب والمنهج الأفلاطوني وهي المزج بين الأدب والفلسفة والعلم في آن واحد . ”

وهناك جانب آخر ارتبط بالدراسات اللغوية هو الجانب الديني . فقد تطلع الناس إلى معرفة لغة الطقوس الدينية . وهكذا وصفت اللغة السانسكريتية تفصيلا على سبيل المثال في ماض العقيدة الهندوسية من أجل فهم كتابهم المقدس الفيدا . ونجد اليهود درسوا العبرية من كتابهم المقدس ، وأنشأ العرب مراكز لغوية تهدف إلى تمكين الإسلام قراءة صحيحة لذكر الحكيم .

هذا في العصور الغابرة أما في العصر الحديث فقد أشرقت شمس النهضة الأوروبية على ميدان البحوث اللغوية خصوصا الجانب الصوتي . وترجع بداية علم اللغة الحديث بوصفه علما حديثا الى القرن 19م حيث شهد ثلاث منعطفات كبرى في مسيرتها المعرفية والمنهجية :

1- اكتشاف اللغة السنسكريتية على يد ويليام جونز .

2- ظهور القواعد المقارنة على يد ” فرانس بوب واسموس راسك »

3- نشوء اللسانيات التاريخية .

(2) مراحل تطوره :

إن علم اللغة الذي نشأ من دراسة الحقائق اللغوية مر بثلاث مراحل لغوية ، قبل أن يحدد هذا العلم هدفه الحقيقي الخاص به .

2-1 **مرحلة النحو** : نشأت مع اليونان وظلت الدراسات اللغوية خاضعة وبشكل كبير إلى المنطق الأرسطي ، وسادت هذه النزعة في الدرس اللغوي الأوربي منذ عهد الإغريق ، اذ عد كثير من مؤرخي الدراسات اللغوية (أرسطو 322ق م) المؤسس الحقيقي للنحو الأوربي لما وضعه من قواعد وأسس ضبط بها النحو الإغريقي ، إذ صنف الأشكال النحوية على وفق ما تشير إليه مقولاته العشر (الكَم والكيف والزمان والمكان ...)

وظلت هذه الفكرة سائدة بين دارسي اللغة وعلمائها الذين « يرون أن النماذج النحوية ينبغي عليها أن تتطابق بقدر المستطاع مع متطلبات المنطق ، ولما كان المنطق منطقاً واحداً وجامعاً ومشتركا بين البشر ، كان من الممكن بناء نظرية نحوية جامعة تناسب كل اللغات في العالم »

اقتصرت هذه المرحلة على علم المنطق وهي تفتقر إلى النظرة العلمية ولا ترتبط باللغة نفسها وليس من هدف لها سوى وضع القواعد التي تميز الصواب من الخطأ في الدراسة المعيارية .

2-3 **مرحلة الفيلولوجيا** : مع بداية القرن الثامن عشر اتجهت الدراسات اللغوية نحو الاهتمام بدراسة النصوص من آثار اللغتين اللاتينية واليونانية ، وعرف هذا النوع من الدراسات بالدراسات الفيلولوجية ، على الحركة التي بدأها فريدريك أوكست ولف 1777م فقد اهتم بتصحيح النصوص المكتوبة وشرحها والتعليق عليها . وكان الهدف من وراء هذه الدراسات هو معرفة البيئة الفكرية والاجتماعية والحضارية للغات الأخرى »

نلاحظ أن هذه الدراسات اعتمدت على اللغة المكتوبة وانحصر اهتمامها على اللغة اللاتينية القديمة . وانحصر اهتمامه في اللغة الإغريقية واللاتينية

2-3 مرحلة فقه اللغة المقارن :

استمرت الدراسات اللغوية المقارنة بعد جونز ، وسار كثير من العلماء على هذا النهج في دراسة مجاميع أخرى من اللغات ، وتوسع البحث ليشمل الصفات المشتركة للأصوات بين هذه اللغات . فقد نشر بوب 1816م « في نظام السنسكريتية » حيث قارن بين الصيغ اللاتينية والإغريقية والسانسكريتية . بعد هذا سرعان ما ظهر علماء لغويين بارزون أضافوا إلى ما أسهم به بوب مثل : جاكوب كريم ثم كوهن . ولعل من فضائل هذا الجهد الكبير الذي قام به علماء الدراسات اللغوية المقارنة أنهم « أضافوا معلومة تفصيلية عن لغات هندية وأوربية مختلفة ، . وكانوا من أوائل الباحثين اللسانيين الذين صرفوا اهتماماً خاصاً لصياغة نظرية لسانية عامة تتسم بالأحكام ”.

الخطأ الذي وقع فيه علماء فقه اللغة في دراساتهم التي اقتصرت على اللغات الهندو أوربية

لم يسألوا أنفسهم قط عن معنى المقارنات التي قاموا بها وأهمية العلاقات التي توصلوا إليها
إذ اقتصر أسلوب الدراسة عندهم على المقارنة ولم يتناول الناحية التاريخية .

وفي القرن التاسع عشر ظهرت أيضا اتجاهات أخرى في الدرس اللغوي الأوربي ، فبعد أن قدم (داروين) نظريته في أصل الأنواع وتطورها في منتصف القرن ، أحدثت هذه النظرية تأثيرا كبيرا في معاصريه ، ومن بين من أثرت فيهم عالم اللغة الألماني (أوجست شلاير ت 1868م) ، وهو واحد من أبرز علماء الدراسات اللغوية المقارنة ، وكان من المهتمين بالقضايا المرتبطة بإعادة بناء اللغة الهندو - أوروبية الأم ، فكانت فكرته التي بنى منهجه عليها ” أن اللغة كانت كائنا مستقلا بذاته عن الإنسان ، وان اتجاه تطورها محدد بقوانين بيولوجية عامة للتطور ، فاللغة تولد وتعيش لفترة محدودة ثم تهب الحياة للغة أخرى أحدث منها لتحل محلها بعد زمن ثم تواصل بدورها الحياة في صورة أحد الفروع المتولدة منها ، وهكذا تكون اللغة ذات (شجرة سلالية).....مثل الإنسان ”

وسميت نظرية شلاير هذه بالنظرية الطبيعية البيولوجية في اللسانيات ، وعرفت أيضا باسم (شجرة السلالة) فاللغة في نظره كائن حي ينمو ويتطور كأبي كائن آخر نجده في أي مكان آخر من الطبيعة »

وفي هذا القرن أيضا برز عالم لغوي ألماني آخر يدعى (همبولدت ت 1835م) ، نحا بالدرس اللغوي المقارن منحى جديدا ، إذ وجه اهتمامه نحو إبراز المادة اللغوية التي تنتمي إلى حقبة زمنية ، أي ملاحظة اللغة في مظهرها الآتي (السانكروني) بطريقة تحليلية من دون الدخول في قضية القرابة السلالية .

كما عارض تأسيس نحو جامع على وفق قوالب تقليدية ، ورأى أن تطلب هذه القواعد بالاستنباط من الحقائق اللغوية لكل لغة على حدة ، ورأى أيضا أن اللغة ظاهرة متحولة وليست ثابتة ، وان مظهرها الثابت ظاهري فحسب .

كما أولى اهتماما خاصا بارتباط اللغة بالفكر ، فالنشاط الذهني يجاهد بالضرورة لكي يتوحد بظاهرة الكلام ، ومن دون هذا الاتجاه لا يمكن لعالم الصور أن ينفذ إلى عالم الأفكار ، ومعنى هذا انعدام التفكير السليم »

وتعود جذور علم اللغة الصحيح الذي يضع الدراسات المقارنة في موضعها المناسب إلى دراسة اللغات الرومانسية (الفرنسية ، الإيطالية الإسبانية ، البرتغالية ، الرومانية) واللغات الجرمانية . التي بدأها دياز DIEZ بكتابه ”قواعد اللغات الرومانسية ” سنة 1832م - و ويتني WHITNEY في كتابه ” حياة اللغة ومُوها ” 1875م وبعد هذا التاريخ قام النحويون الجدد بتأسيس مدرستهم نذكر منهم بروكمان BRUGMANN - واج H. OSTHOFF وبرون BRAOUNE ” وقد ساعدت هذه الدراسات على اقتراب علم اللغة من هدفه الحقيقي المنشود .

وأهم ما أسهم به هؤلاء العلماء هو وضع نتائج الدراسات المقارنة في الإطار التاريخي المناسب لها

3- ميلاد علم اللغة :

الحدث الأكبر الذي غير مسار الدراسات اللغوية كان في مطلع القرن العشرين ، إلى جانب الدراسات اللغوية المقارنة ظهرت الدراسات الوصفية التي تسيدت الدرس اللغوي ردحا من الزمن ، فقد أحدثت محاضرات (دي سوسير ت 1913 م) التي نشرها اثنان من طلابه في العام 1916م تحولا كبيرا في مسار الدراسات اللغوية ، حتى شبه التحول الذي أحدثته محاضرات دي سوسير بالثورة الكوبرنيكية“

ودي سوسير هو المؤسس الفعلي لهذه المعرفة المستجدة بنزعها الوصفية المجاورة للدرس اللغوي الذي تحمل على عاتقه مهمة إثبات القرابة بين اللغات على أسس بنيوية بحتة .

4- تعريف علم اللغة :

علم اللغة هو الدراسة العلمية للغات البشرية الطبيعية من خلال اللغات الخاصة بكل قوم من الأقسام . ونعني بالصفة العلمية دراسة اللغة باعتماد الملاحظة (observation) والتزام الموضوعية (objectivité) وهذا يعني أن الموضوع الذي يعالجه علم اللغة هو اللغات البشرية عامة وخارجة عن نطاق الزمان والتاريخ والعرف وحتى الدين .“

وليست اللغة شيئا مجردا بل لها تشعب وامتدادات تمتد من الماضي والحاضر وربما المستقبل . وهذه الامتدادات تفرض على اللساني Linguist معالجتها وفق الفروع التالية :

- لغة صلة بالنظرية التي تصفها وتدرسها وهي صلة ولدت ما يسمى باللسانيات العامة
Linguistique générale

- لغة صلة بالسلوك البشري وعلم النفس بما أنها ظاهرة نفسية تتلون بسلوك الإنسان ونشأت عن هذه الصلة اللسانيات النفسية. Psycholinguistique

- لغة صلة بالمجتمع إذ هي تعكس خصوصياته وعاداته وتقاليده وثقافته تدرسها اللسانيات الاجتماعية. Sociolinguistique

- اللغة لها صلة بمعرفة أصل الإنسان إذ لا يمكن معرفة الأصول الأولى للغة إلا إذا عرفنا أصل الإنسان ، وبما أن اللغات تختلف في تقطيع العالم ونقل تجارب الإنسان نشأت علاقة متينة بين الظاهرة الإنسانية والظاهرة اللغوية من ناحية أخرى ، ونشأت عن هذه العلاقة اللسانيات الانتروبولوجية .
Linguistique anthropologique

- اللغة لها صلة بالوظائف البيولوجية في دماغ الإنسان نشأت عنها علاقات تفاعل ولدت اللسانيات البيولوجية . Linguistique biologique

- وللغة صلة بمستحدثات الحضارة المعاصرة مثل الحاسوب مما مكن معالجة اللغة معالجة معلوماتية في الترجمة ومعالجة نصوصها بالحواسيب فنشأت اللسانيات المعلوماتية Linguistique computationnelle

5- مناهج علم اللغة :

المنهج هو مجموع العمليات العقلية والخطوات العملية التي يقوم بها الباحث بهدف الكشف عن

الحقيقة أو البرهنة عليها بطريقة واضحة وبديهية تجعل المتلقي يستوعب الخطاب دون أن يضطر إلى تنبيهه . »

فقد تميزت الفترة الممتدة بين أواخر القرن التاسع عشر وما بعد الحرب العالمية الثانية ، بتراكم كبير في مجال الدراسات اللغوية ، وإذ كان من الصعب تصنيف هذه الدراسات في خانات معينة انطلاقاً من معايير محددة ، فإنه يمكن أن نُميز على الأقل بين مدرستين فيما يخص المناهج المعتمدة في دراسة وتحليل المواد اللغوية . وما يرتبط بهما من صيرورة ذهنية وعوامل فيزيولوجية ومؤثرات خارجية .

وهذان النزعتان هما : **النزعة الحسية النقلية** التي تعتمد على المشاهدة والاستقراء ومعاينة الوقائع وتصنيفها لاستنباط القوانين والاستقراء هو كل استدلال ينتقل فيه الباحث من الخاص إلى العام أو من الجزء إلى الكل ، أو من المحسوس إلى المجرد .»

النزعة العقلية الافتراضية الاستنتاجية التي تنطلق من مسلمة ثم تولد عنها مجموعة من القواعد تستنتجها بفعل عمليات معينة .

نمثل للاتجاه الأول بالمدارس البنيوية التصنيفية الكلاسيكية التي اشتقت عن توجهات دي سوسير . أما الاتجاه الثاني فأحسن ما يمثله هو مذهب النحو التوليدي التحويلي الأمريكي الذي مثل عند ظهوره ثورة . على المذهب البنيوي التي تعتبر كلها وريثة التراث السوسيري على الرغم من اختلافهما الظاهري .

1.5 - 1 - الاتجاه الأول : البنيوية Structuralism :

تقوم البنيوية على أساس نظري مؤداه أن البنية تتألف من عناصر ومكونات جزئية ، وأن تغير يطرأ على أي واحد من هذه المكونات . لا بد أن يؤثر في سائر المكونات والعناصر الأخرى . وقد استعمل دي سوسير كلمة نسق ولم يستعمل كلمة بنية ، حيث نجده اهتم باللسانيات الداخلية linguistiques internes التي تدرس نسق اللغة وقواعدها الباطنية ، تاركا اللسانيات الخارجية التي تدرس تطور اللغات واللهجات linguistiques externes

وعلى هذا الأساس فالبنيوية مبدأ عام يصلح لتبني اللغة والمجتمع وغيرهما . فإذا أخذنا البعد البنيوي للمجتمع . وجعلنا هذا البعد أساساً لتفسير الظواهر الاجتماعية ، تبين لنا بما لا يقبل الشك ، أن ثقافة المجتمع وعاداته ، وقيمه ومعتقداته ، يربطها جميعاً شيء واحد هو بنية المجتمع ، وأن ما يؤثر في أي واحد من مكونات هذه البنية ، يؤثر في سائرهما بالضرورة . وكما أن هذا المبدأ يصلح لتفسير الظواهر اللغوية . ومن هنا كانت البنيوية منهجاً لغوياً . ويعد دي سوسير أول من وضع اللبنة الأولى لظهور المنهج البنيوي وقد اعتبر منهجاً علمياً في مؤتمر براغ عام 1929م » وينطلق علم اللغة البنيوي من عدة مسلمات منهجية نلخصها فيما يلي :

- عدم الاهتمام بالمظاهر الواعية للغة ودراستها في آنياتها وتزامنها دراسة سانكرونية فقد رأى دي سوسير أن اللغة شكل forme وليست جوهر substance وأنها تشكل نظاماً مغلقاً قائم الذات ، له قواعده الخاصة وروابطه الذاتية الداخلية إذن هي مجموعة من العناوين

لأشياء موجودة في الخارج والواقع . وهذا الواقع ليس منظما فاللغة هي التي تنظمه »
إن الشكل اللغوي هو سلسلة الأصوات و التموجات الصوتية بينما الجوهر

فهو المعنى انه داخلي وقيمتة نفسية تتغير بتغير الأشخاص والمواقف وبالتالي فهي غير قابلة للملاحظة والقياس ولا لصرامة الدراسة العلمية »

لقد انطلق دي سوسير من اعتبارية (الدال ، والمدلول) ليصل إلى أن اللغة شكل وليست جوهر إذ تكتسب كل كلمة دلالتها بحسب وضعها وتفاعلها مع الكلمات الأخرى ، فاللغة ليست جوهرًا ، أي كلمات مستقلة بعضها عن بعض ، فكل وحدة لغوية صوتية كانت أو معنوية لا تتحدد قيمتها بالمحل الذي تحتله في النظام اللغوي .

- رفض التعامل مع الوقائع اللغوية كما لو أنها كانت كيانات مستقلة . لان المواد والكائنات اللغوية ليس لها استقلال مادي ، ولكنها في حاجة إلى المفهمة عن طريق تمثيل اللغة نسقا مبنيا على أساس علاقات لغوية باطنية .

- اكتشاف قوانين علمية معطاة على صعيد الوصف والتجربة .

خاتمة :

نلاحظ أن المنهج البنيوي حلل اللغة انطلاقا من مسلمة أن اللغة هي وسيلة للتواصل أو التعبير بينما المنهج التوليدي التحويلي ينطلق من مسلمة أنها مجموعة جمل كل جملة منها تحتوي على شكل صوتي وعلى تفسير دلالي ذاتي . فالأول يتحدث عن اللغة باعتبارها شكلا قبل كل شيء بينما يعطي الثاني الأسبقية للجوهر والبنية العميقة دون أن يهمل البنية السطحية أي معنى الظاهرة اللغوية . لكن كلاهما يقعان في العجز أمام الواقع اللغوي . إذن الثنائية (استقراء / استنباط) ثنائية زائفة وذلك لأنه لا وجود لمعايير ثابتة ومحددة تمكن من رسم حدود ابستمولوجية بين الذات والموضوع فيما يخص إنتاج المعرفة وبحث الظواهر والمواد اللغوية .

وهذا ما نلمسه من كلام تشومسكي عندما أجاب عن سؤال المنهج قائلا « انه ليس لي مناهج إطلاقا منهج البحث الوحيد الذي أتبعه هو أن أبذل طاقتي في النظر في مشكلة معينة ، وأحاول أن أجد بعض الأفكار عما يمكن أن يكون تفسير لها »

كما نستشف سيطرة المنطق والعقل على المناهج الذي عولجت بها اللغة وأن ممارسة النقد على العديد من نظريات العلم المعاصر تكشف زيف الثنائية (استقراء / استنباط) وذلك لعدم إمكانية فك التداخل الحاصل بين الذات العارفة الباحثة والمادة اللغوية .